

فترة سكون في ظلام يجب أن يقضيها كل إنسان في كل يوم. واسترجاع لما قطّر من عُصارة العقول وهي فوق ذلك أدعى لصفاء الذهن وصحة التفكير، فهناك ضرب خير من النوم هو أويقات يمضيها في هدوء وسكون وظلام، يكون فيها متباهاً نائماً، كما يلذ لذة الصحو، ويلمع في روحه قبس أشبه ما يكون بالإلهام، أو اللحمة الدالة ف تكون خيراً من ساعات وساعات يقضيها في العمل، وبين المحبة والقلم، في سكون الظلماء يرى الإنسان بعينه ما لا يراه في الضياء، على أنه هو لا يرى بعينه فحسب، والأشجار في حقيقها؛ فكأنه منح من الحواس أضعاف حواسه، وملك من الملكات ما لا يعد بجانب ملكاته؛ وكان عالم الصخب والجلب يغشى عينه، فلئن كان الصوت في عالم الحس له حدود، فإذا قلت تموجاته عن حدوده أو زادت انعدم السمع، فليس في عالم الروح حدود للصوت؛ ولئن كانت العين في عالم الحس لا تدرك من الألوان إلا أقلها، فعيوننا وأذاننا الروحية تستعين بالسكون والظلماء، أكثر مما تستعين بالضوء والهواء. إنّ لأرثي لهؤلاء الذين يضيعون كل حياتهم في هزل، بل أرثي أيضاً لهؤلاء الذين يقضون أوقاتهم بين بحث علمي، وأعتقد أن هناك عنصراً في الحياة ينقسمون وهو عنصر التأمل؛ ولست أعني بالتأمل ذلك الضرب من الأسلوب المنطقي العلمي في البحث والتفكير، وفيه يعرف نفسه على حين أنه يعرف غيره أكثر مما يعرف نفسه، وفيه يجلس إلى نفسه ويصارقها ويصارحها، على أن أكثر الناس يجالسون الناس ولا يجالسون أنفسهم، وإن كانت حصصه تمتاز بأنها في ميسور كل إنسان، إنما هي من قبيل تربية النفس بالنفس، وليس تحتاج إلى مران واعتياز وعرفان بكيفية السلوك. أول دروسها أن تخلو بنفسك، ولا يكون ذلك إلا في هدوء وسكون، وخير أن يكون في ظلام، واستعرض نفسك من حيث بدنك كيف تؤديه ببعض عاداتك، وعلاقتك بالناس واستعراض ما يكون منك ومنهم. وأرق إلى خطوة ثالثة تسائل فيها نفسك: ما غاياتك وما مبادئك في الحياة؟ وهل وضعت لها خططاً؟ وما مقدار تقدمك إليها أو تأخرك عنها؟ سيسلمك ذلك — من غير شك — إلى خطوات أوسع، وستكون لك في النهاية فلسفة لا من جنس فلسفة أفالاطون وأرسسطو، ولكنها فلسفة شخصية قد بنيت على تأمّلك وشعورك لا على حفظك وقراءتك. وستحصل من هذا الطريق بأفق أوسع وملكت أعلى. من غير أن يتّبعوا بموتهم. ويدعو إلى النشاط والعمل لا إلى الخمول والسلام. ولعل الإنسان يجد في الركون إليه بعض أوقاته راحة مما رمتنا به المدينة الحاضرة من عناء،